الأديان البدائيـــة

عند الاستراليين

لعلَّ سكان استراليا المتخلفين أكثر الأجناس البشرية فطرة . فما فتئت حالتهم الاقتصادية منخفضة انخفاضاً كبيراً ، وما برحوا يأبون تربية الماشية أو قطعان الأغنام أو فلاحة الأرض

الرجال منهم يقتصرون للكنغر والنعام والحيوانات المتوحشة ويتوسلون ببعض المهارة والذكاء الى قنصها . أما النساء فهنَّ يتصيَّدن الحيوانات الصغيرة كنحل العسل والسحالي مثلاً ، ويجمعن الخضروات النامية من الحقول والبراري كيفما اتفق . ورغم أن الشتاء يكون قارصاً عادةً وأن ليالية تكون مصحوبة بصقيع ، فانهم لم يتعلموا بعد كيف تُصنع الملابس ليتوقوا بها الزمهرير ، وهم لذلك يرحبون بأي لباس يمنحهم إياه البيض . أما الأكواخ التي يأوون اليها فهي فطرية الى أقصى حدّ ، وتستخدم لغرض واحد وهو الالتجاء اليها لوقاية من الريح الشديدة . ويستطيع الاستراليون المتخلفون في الحضارة أن يحصوا الأرقام الخمسة الأولى (أي من ١ الى ٥) بسهولة ولكنهم يعانون مشقة كبيرة في استيعاب ما بقي من الأرقام الحسابية . ورغم ذلك ، فقد استحدثوا لأنفسهم نظاماً معقداً من « الطواطم »[1] والأديان يسترشدون به في عقود الزواج وما شابه ذلك من شؤون الحياة .

ولعلَّ مما يثير الدهشة أن نعرف أن هؤلاء القوم لا يمارسون طقوس العبادة المألوفة التي نحسبها ضرورية جدًّا ، فهم لا يردِّدون صلوات أو دعاء ، أو يحاولون الاتصال بأي نوع من الأرواح أو الآلهة أو المكائنات غير المدوسة أو غير المرئية . وليس لهم كهنة

---

(١) الطوطمية هي تقديس الحيوانات أو النباتات كما سنوضح ذلك فيما بعد . راجع البحث النفيس للاستاذ رشوان احمد صادق بن « الطوطمية » في حديثي للتخلف الاسكيمي نوفمبر ١٩٤٣

أو ضابط حتى ليقال أحياناً ان أولئك القطريين ينتمون الى العصور السابقة لنشوء الأديان. وعلى أي حالٍ يصحّ أن نقول ان الأديان تنتشر بينهم في صورة أخرى ، لأنهم يمارسون أموراً لها نظائرها وأشباهها في الأديان الراقية بين الأجناس التي تفوقها حضارة ورقيّاً .

ففي استراليا قبيلة تعرف باسم ارنتا Arunta لها عادات دينية نوجزها فيما يلي :

يمرّ الطفل من هذه القبيلة في أربعة أدوار ، وفي كلّ من هذه الأطوار يجوز في طقوس دينية متنوعة . ويحل موعد الطور الأول لدى بلوغ الطفل العاشرة أو الثانية عشرة من عمره أو نحوه ، لأن الأستراليين البدائيين لا يعرفون أعمارهم بالضبط لعدم تسجيلها وعدم استخدامهم أي تقويم يعرفون به الأيام والأشهر والسنين . ففي هذه السنّ ، يجتمع رجال القبيلة ونساؤها في منطقة متوسطة بالقرب من المخيم الرئيسي ، وينتقى الأطفال الذين بلغوا السن القانونية واحداً واحداً ، ويطوّح الرجال بهم في الهواء ، ثم يتلقونهم لدى سقوطهم بينما تشرع النساء في الرقص على شكل دائرة ، ويتددنّ أيديهنّ ، ويصرخنّ صرخات مدويّات . ثم تدهن صدور الأطفال وظهورهم بالألوان الحمر والصفر ، ويحاطون في أثناء ذلك علماً بأن المراسم التي يجتازونها الآن إنما هي لترقيتهم الى طور الرجولة وانهم لا ينبغي عليهم مستقبلاً اللعب مع النساء أو الفتيات أو معاشرتهنّ في مخيماتهنّ ، وانه يجب عليهم الانتباه من تلك اللحظة الى مخيمات الرجال، وأن يقلعوا عن مرافقة النساء في أثناء تجوالهنّ للبحث عن الخضروات وقنص الحيوانات الصغيرة كالسحالي والفيران ، ويصحبوا الرجال عند خروجهم لصيد الحيوانات الكبيرة الوحشية . وبعد اتمام هذه الفريضة ، يتطلع الصبيان الى الوقت الذي فيه يكونون قد اضطلعوا بجميع الفرائض ، ويحقّ لهم أن يقفوا على أسرار القبيلة .

والطور الثاني وهو طور الفتيان ، تصحبه عادةً حفلات أوسع نطاقاً من سابقتها ، ويكون الطفل قد تقدّم في العمر قليلاً وبلغ نحو الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة . وقد شهد مراقبان انجليزيان يدعى أحدهما سبنسر Spencer والآخر جلين Gillen إحدى هذه الحفلات الدينية ووصفاها بالتفصيل فقالا إن الطفل الذي يؤدي هذه الفريضة يقضي عليه ثلاثة أيام يصرخون صراخاً عالياً ، ويحملونه الى الموضع الذي تجري فيه المراسم ، ويكون معدّاً إعداداً دقيقاً ، بعيداً عن مرأى النساء والأطفال . والغرض الرئيسي من هذه العزلة

الجنسية الجزئية هو أن يطبعوا في ذهن الصبي انه على وشك الارتقاء الى مرتبة الرجال ، وان هذا حدٌّ فاصل بين حياته القديمة وحياته الجديدة التي يزمع الارتقاء اليها .

***

ومما يساعد على أن ينطبع في ذهن الصبي ، بصورةٍ قويةٍ ، شعورٌ عميق بضرورة السير وفقاً لنظم القبيلة واحترام فائق للمكانة السامية التي يتمتع بها الرجال الذين يفوقونه سنًّا والذين يعرفون جميع الشعائر الغامضة ويلمّون بها — مما يساعد على ذلك ، جهل الصبيان الكلي بما خُبِّىء لهم ، وشعور الواحد منهم بأن شيئاً غير عادي سيقع له — وهو شيء ذو طبيعة غامضة .

وفي اليوم الرابع ، حُمل الصبي إلى مكانٍ معينٍ معدٍّ له بالقرب من مكان المراسم الخاص ووضع تحت رقابة شديدة . وظلّ في الأيام الأربعة التي تلت ذلك بمعزل تام عن الناس ، باستثناء بعض فترات معينة كان يؤتى به فيها ليشاهد للمرة الأولى في حياته أنواعاً مهيبة من الطقوس تصوّر له الحيوانات الوطنية ، وأسلاف القبيلة على الصورة التي يُظنّ أنهم ظهروا فيها وتصرّفوا بها في حياتهم . ويستعينون على تصوير ذلك بالرقص والغناء والتمثيل والإيماء . ومن صباح اليوم التاسع حتى مسائه ، زادت الطقوس وتكررت ، وأصبحت مثيرة جدًّا . وفي أثناء الليل الذي أعقبه ، كان الصبيّ يستمع ووجهه ملثم إلى غناء أغنية « النار » . ولدى انبلاج فجر اليوم التالي ، دهنوا جسمه بالألوان ثانيةً ، وجعلوه يشاهد بعض الطقوس ويصغي إلى صرخات وأغانٍ طوال النهار . وبعد الغسق أوقدت نار كبيرة ، وزمجر رجال القبيلة كالثيران ، ودوّت صرخاتهم تشقّ عنان السماء وتصمّ الآذان

ويحسب الأطفال والنساء أن هذه الأصوات صادرة عن روح هائل جاء ليخطف الصبي ويهرب به في الغابة . وفي أثناء ذلك أجريت عملية مؤلمة للصبي بواسطة مدية صغيرة من حجر الصوّان ، وهُنّىء عقب ذلك لأنه لم يصرخ ، ثم أُطلع على بعض الأسرار الرمزية التي يُعتقد أنها تعجّل برئه من جراحه ، وهي أسرار ينبغي عليه أن يحرص عليها ، ولا ينساها لئلا تنزل به وبأفراد عائلته عقوبة الموت.

ولمّا تنتهي من إجراء هذه العملية ، يمتنع الصبي تحت إشراف دقيق ، ومنح

وتئاً كافياً يتيح للجرح أن يبرأ ، ويتفاوت بين خمسة أسابيع وستة . وكان عليه بعد ذلك أن يؤدي الفريضة الثالثة التي تنتهي بعملية مؤلمة أخرى يطلق عليها « التشريط » Sub-Incision ، ويصحب هذه الفريضة كذلك شعائر دينية كثيرة الزخرف تكشف للصبيّ عن الحِكَم والتقاليد السرية المقدسة للقبيلة . أما الفتيات فإنهنّ يجرين في طور مماثل نوعاً ما ، غير أنه أبسط منه . والغرض من هذا تأكيد النموّ الجسدي للفتاة وإطلاعها على حِكَم القبيلة وتقاليدها السريّة ، لأنها تكون قد ارتقت إلى مرتبة المرأة المكتملة النضوج .

***

وبعد بضع سنوات من إجراء الفريضة الثالثة — ويكون الصبيّ قد شبّ وتخطّى منتصف العقد الثالث من عمره (من ٢٥ — ٣٠ سنة) يؤدي الفريضة الأخيرة وهي أغنى الفرائض بالزخرف والزينة ، ويطلقون عليها اسم انجورا Engwura أي « النار » لأنها تنتهي بأن يُحمل الشاب على النوم مدة أربع دقائق أو خمس على فروع خضر من فروع الشجر موضوعة فوق جمر ساخن متوهج . وتستغرق هذه المراسم شهوراً . ويقول السائحان البريطانيان وقد أسلفنا الإشارة إليهما إنها استغرقت من منتصف شهر سبتمبر إلى منتصف يناير عن العام التالي . وفي هذه الفترة يجتمع الرجال والنساء من جميع أجزاء القبيلة ومن القبائل النائية ، وتجري كل يوم مراسم مختلفة يتفاوت عددها من اثنين إلى ستة تصحبها زخارف وزينات كثيرة . ويجتمع كبار رجال القبيلة في هيئة مجلس أو مؤتمر ، ويكرّرون حِكَم القبيلة وتقاليدها ويناقشونها حتى تطبع ولا تُنسى ، ويكون ذلك على مسمع من الشبان . ثم يُخرج كبار رجال القبيلة الأشياء والموادّ المقدسة ويفحصونها . وبعد ما يمرّ الشاب في هذا الطور يقال إنه أصبح عضواً كاملاً في القبيلة واقفاً على دقائقها . ويقول الوطنيون أنفسهم إن هذه المراسم لها تأثير كبير في تقوية الذين يمارسونها . فهي تغرس فيهم الشجاعة والحكمة ، وتجعل الرجال لطفاء في معاملتهم ، مُعرضين عن الشجار والقتال . ويبدو أن الهدف الرئيسي لهذه الفريضة هو : أولاً : وضع الشبان تحت إشراف كبار السن وقيادتهم حتى يصدعوا لأوامرهم . ثانياً : تدريبهم على ضبط النفس ومواجهة الصعاب .

ثالثاً : إطلاع الأحداث الذين بلغوا سن البلوغ على الأسرار المقدسة للقبيلة ، وهي الخاصة بالأشياء المقدسة و « الطوطم » الذي ترتبط القبيلة به .

وينتمي كل مواطن في استراليا الى « طوطم » أي الى حيوان أو نبات ، أي ان المواطن أو المواطنة مرتبطة بطريقة غامضة بنبات معين أو بحيوان معين . والحق ان الفطريين لا يعرفون بالضبط نوع هذه العلاقة بينهم وبين النبات أو الحيوان ، وهم — لأنهم خلف متخلفون — لا يشعرون كما يشعر المتمدينون بحاجتهم الى تفسير كل شيء تفسيراً منطقياً يقبله العقل . فهم يقولون عن هذا الرجل مثلاً — ولعتقدون ذلك — إنه « كنغر » ، أو « نعامة » ، أو انه ليس « بسحلية » ... الخ . وهذا في عرفهم هو ختام الأمر كله ، ولا مدعاة للاستطراد . وتختلف التفسيرات — إذا أبديت — اختلافاً بيّناً بين القبائل الاسترالية المختلفة وبين الأجناس البدائية الأخرى في جميع أنحاء العالم . فتعتقد قبيلة الأرنتا Arunta مثلاً ان في كل فرد من أفرادها روحاً تناسخت ، إما عن أحد أسلافه من نفس « الطوطم » مباشرة ، أو من روح حيوان « الطوطم » ذاته . بمعنى أن الروح الكائنة في أي رجل إما أن تكون روح أبيه أو جده أو سواهما ممن كانوا ينتمون الى « الطوطم » الذي يدين به ، أو أن تكون روح الحيوان الطوطمي .

***

ولما كان المرء مرتبطاً بعلاقة غامضة مع « طوطمه » أو حيوانه ، وجب ألاّ يأكل هذا الحيوان إلاّ في حالات نادرة تقتضيها الشعائر الدينية . وهذه الوحدة أو العلاقة تمدّ المرء بالقوة التي بستطيع أن يزيد انتاج النباتات أو الحيوانات الطوطمية لمصلحة أفراد الطواطم الأخرى . ويستدعي تحقيق هذه الغاية مباشرة بعض الطقوس الطوطمية . وتلجأ قبيلة الأرنتا الى أكل الطعام الطوطمي في حفلات عامة يشترك فيها جميع أفراد القبيلة كنوع من المشاركة وقطع العهد للتعاون والتضامن معاً ، وهذا لا يمكن تحقيقه بالوسائل البشرية العادية [1] .

وديع فلسطين

[1] يرجع في كتابة هذا الفصل على كتاب W. K. Wright's A Student's Philosophy of Religion وقد ترجمت جمعية الجامعة في رابطة الأدباء بالقاهرة